ملامح نظرية القراءة عند جون بول سارتر

يوسف أمفزع جامعة مولاي إسماعيل المغرب

ملخص:

لم تنطلق نظريات القراءة والتأويل من فراغ، وإنما كانت لها إرهاصات نقدية وفلسفية تتلخص أساسا في فلسفة الفن كما تمثلتها الوجودية، عند جون بول سارتر هذا المفكر، والأديب، والمسرحي، والفيلسوف الذي شيد نسقا فكريا متكاملا أعاد المعايير النقدية لنصابها، وقد اضطلع سارتر بمهمة رد سلطة التأويل للقارئ، بيد أنه انطلق من القاعدة الفلسفية، إذ يدرس سارتر الإنسان باعتباره ظاهرة مثله مثل الأدب، والتشكيل، والمسرح... التي تعتبر فضاءات إشكالية. وعليه، فقد وضع سارتر معالم نظرية جديدة في النقد، ستتطور بعدئذ لتصبح نظريات للتلقي.

الكلمات المفتاحية: القراءة، التأويل، سلطة القارئ، النقد، الوجودية.

تمكن التفكير النقدي من بلورة نسق جديد، تمثل في إحداث ثورة على النقد التقليدي. وبذلك، تم التأسيس لنقد مغاير لما عهدته الكتابات الحديثة، إلا أن هذا المنعطف ما كان له أن يتحقق بدون الإسهام الفكري والنقدي لجون بول سارتر، الذي يعتبر النواة الصلبة لنظريات التلقي والتأويل المعاصرة.

لم تنطلق نظريات القراءة والتأويل من فراغ، وإنما كانت لها إرهاصات نقدية وفلسفية تتلخص أساسا في فلسفة الفن كما تمثلتها الوجودية، عند جون بول سارتر Paul Sartre Jean (1905-1980) هذا المفكر، والأديب، والمسرحي، والفيلسوف الذي شيد نسقا فكريا متكاملا أعاد المعايير النقدية لنصابها، فقد هُمِّش القارئ تماما على حساب الكاتب-الإله، وقد اضطلع سارتر بمهمة رد سلطة التأويل للقارئ، بيد أنه انطلق من القاعدة الفلسفية، إذ يدرس سارتر الإنسان باعتباره ظاهرة مثله مثل الأدب، والتشكيل، والمسرح... التي تعتبر فضاءات إشكالية.

لقد وضع سارتر معالم نظرية جديدة في النقد، ستتطور بعدئذ لتصبح نظريات للتلقي. وبذلك، فإنه قد فكر قبل منظري الأدب في دور القارئ، باعتباره عنصرا أساسيا في التحقق القرائي للعمل الفني. ومن أجل النفاذ إلى عمق أطروحة سارتر يجب أن نتساءل حول مسألة الكينونة L'être، وإشكالية الحرية في القراءة، بوصفها إشكالية محورية في كتاب سارتر: "ما الأدب؟" Qu'est-ce que la littérature، الذي أدرج فيه سؤالا كان مفتاح ملامح نظرية التلقي وهو: لمن نكتب[1]((Pour qui écrit-on ?)). وبهذا، توهج سيرورة التفكير في دور القارئ.

---

[1]- Jean Paul Sartre : ***Qu'est-ce que la littérature ?***, Ed. Gallimard, Coll. Folio - Essais, Paris, 1948, P : 75.

*- (En-soi) في ذاته: يحيل هذا المفهوم الذي نحته سارتر إلى عالم الأشياء الفزيائية (ورقة، كأس، طاولة...)، إنه عالم ثابت وساكن، تكون الأشياء فيه في ماهيتها، حيث إن لها وظيفة محدودة تتمثل في ذاته (Pour-soi) لأجل ذاته: وينتمي هذا المفهوم إلى عالم الوجود فالإنسان كائن لأجل ذاته pour-soi، ويمكن أن نقول بدون ماهية تضعه إلى جانب الأشياء

ويبقى النص مجرد شيء ثابت بدون وجود قارئ، فالعمل الأدبي الذي لا قارئ له هو: شيء ((في ذاته)) (Un en-soi) *، أو كينونة ليس لها وعي بذاتها، فالقراءة تعد عملية اكتمال الكتابة، وهي التي تحدد ماهيتها، ذلك أن الماهية تتلو الوجود عند سارتر، فالإنسان يجب أن يظل حرا بالضرورة، إلا أنه بعدئذ مسؤول، فبدون حرية ستكون المسؤولية مجرد فكرة يوتوبية، فالإنسان حر والحرية هي الإنسان، وتتمثل الحرية كذلك في الاختيار؛ وبهذا المعنى، فالقراءة هي اختيار حر للإنسان. ولذلك، فإن إنتاج النص الفني وتلقيه، مشروط بحرية الكاتب أولا، والقارئ بعد ذلك، فكلاهما مسؤول عن سيرورة تأويل العمل الفني.

إن الإنسان هو مجال اللامنفعية L'inutile بامتياز، ولهذا السبب فهو غاية في ذاته، إلا أن سارتر يؤكد بأن عمله وحريته وصواب اختياراته الفكرية، هي ما يوفقه في الحياة. ولذلك، فإن الكتابة الناجحة في نظر ساتر، هي الكتابة الأدبية الملتزمة L'écriture Engager؛ فالفن يجب أن يصير آلية ليس فقط لأجل التعبير عن المشاعر العميقة الغاضبة، أو الفرحة، أو القلقة... وإنما من أجل الكشف عن خبايا العالم والإنسان ككل، "فالكاتب يجب أن يختار كشف العالم وكشف الإنسان بخاصة، ومن أجل الإنسان أيضا، لتمكينه من مواجهة الأشياء،"[1] وهو عن وعي تام بها ليعرف كيف يختار.

إن الكاتب الملتزم يعي أن للكلمة فاعلية، ويعرف بأن "عملية الكشف تعني التغيير، ذلك أن لزوم الكشف هو تصميم يهدف إلى التغيير."[2] فالكاتب الملتزم يجب أن ينفد إلى منتهى البنيات العميقة للمجتمع، ويؤكد سارتر على ضرورة كون الكاتب فاعلا في الوجود، حيث إن "الكاتب الذي يمتلك سلطة الكلام فإنه يقصد، ويفكك، ويأمر، ويرفض، ويتحدى، ويرفض، ويتحدى، ويتوسل، ويفحم، ويستجدي، ويزدري، ويومئ."[3]

الصمت أو المسكوت عنه

يشترك القارئ في عملية إدراك ما يسميه سارتر الصمت (Le silence)، "ففي عمق هذا الشيء (العمل الفني)، يوجد الصمت الذي لا يلهج به الكاتب."[4] وهذا الصمت مفترض في كل عمل فني، لأنه هو الذي يخول القارئ بناء النص الموازي (النص النقدي)، وهذا ما سماه إيكو المسكوت عنه (Non-dit)، أو البياضات النصية. وعليه، فإن الوجودية عند سارتر أعادت للقارئ مكانته داخل المنظومة الفكرية ككل، "ففي كلمة واحدة، إن القارئ الوعي بالكشف

Les Objet، فله إذن وجود حر وإليه يؤول أمر بناء ماهيته، غير أن الثابت أنه عدم Néant، وهذا المفهوم في نظر سارتر لا ينطبق إلى على الإنسان الذي يعتبر مشروعا Projet، فإذا سكن إلى الدعة والخمول كان في حكم الشيء الجامد، ولكن إذا كان إنسانا لأجل ذاته، فإنه سيكون فاعلا في الوجود؛ وبذلك سيصنع التاريخ ويثبت ماهيته.

[1]- Jean Paul Sartre: ***Qu'est-ce que la littérature ?***, Op. Cit., : 29.

[2]- Ibid.، P: 28.

[3]- Jean Paul Sartre: ***Qu'est-ce que la littérature ?***, Op. Cit., P : 25.

[4]- Ibid.، P: 51.

والخلق في الوقت نفسه، يستطيع خلق إبداع اكتشافي."[1] وعطفا على ما سبق، يتضح بأن هذا المفكر يعتبر من النقاد الذين فكروا في القارئ، قبل أن يهتدي له رواد نظرية التلقي.

ما من شك، في أن حرية الكاتب مرهونة بحرية القارئ الذي يضطلع بمهمة قراءة العمل الفني، معتمدا في ذلك على وعيه بذاته وبمسؤوليته تجاه الإبداع، فمواجهة الصمت هي محاولة للإدراك العميق والتزام دائم بالتأويل الواعي للأعمال الفنية؛ وقد تبين أن قانون القراءة والتأويل عند سارتر، يتسم بالحرية ولكنه مرتبط بالمسؤولية وبواجب الإدراك العميق للوجود بهدف تغييره جذريا.

تقويض سلطة الكاتب

يشير النقد الجديد إلى كون التفكير النقدي ليس مغلقا؛ ولهذا، كان قابلا للتعديل، وقد كان الكاتب يجتاح النقد ويقبض على الإبداع بيد من حديد، فاعتد بذلك، المالك الأبدي للعمل الإبداعي، حيث إن "أغلب النظريات النقدية تسعى إلى تفسير كيفية كتابة أثره الفني؛ ووفق أي رغبة، وإكراهات وحدود."[2] فالنقود التي صيغت في مرحلة ما قبل مؤلف (ما الأدب؟)، لا تحيل إلا على نفسها باعتبارها تأويلا مطلقا، فطبيعة هذه الممارسة النقدية تؤدي نحو "إرجاء النص إلى كاتبه، ما يعد إلزاما قبليا للنص بالسكون... إنه إغلاق للكتابة."[3] وعليه، فالكاتب غدى أسطورة أي أثرا يترك بعد ذلك طيفا، وهذا التصور قد كان حاضرا عند سارتر، الذي اعتبر القارئ كينونة شمولية للعمل الفني. وهكذا، "فالقراءة هي ميثاق سخي بين الكاتب والقارئ، فكل منهما يضع ثقته في نظيره، حيث إن كلاهما يستلزم الآخر."[4]

يربط جون بول سارتر الصلة بالقارئ، لأن النص كيفما كان جنسه يصير شيئا (في ذاته En-soi) دون قراءة، "فالموضوع الأدبي يتجسد في صورة دولاب يحتاج إلى حركة، تتمثل في فعل القراءة التي تبقى ممتدة."[5] والكينونة الشاملة للأعمال الفنية لا تتحقق إلا بالقارئ، الذي يأخذ على عاتقه مهمة ملأ الفراغ النصي الذي يسميه سارتر ((الصمت))، وإذ كانت "القراءة تعد تركيبا لفعل آخر يتمثل في الإدراك والخلق."[6] فالكتابة إذن دعوة للقارئ إلى مواجهة الوجود الموضوعي للنص؛ ولذلك، "فإن تأويل نص ما، لا يعني إضفاء المعنى عليه، ولكن الأمر عكس ذلك، يقوم بإحداث علاقات متعددة معه."[7]

---

[1]- Ibid.، P : 50.

[2]- Roland Barthes: ***Le bruissement de la langue***, Ed. Gallimard, Coll. Folio - essais, Paris, 1984, P : 34.

[3]- Ibid.، P: 68.

[4]- Jean Paul Sartre: ***Qu'est-ce que la littérature ?***, Op. Cit., P : 62.

[5]- Ibid.، P: 48.

[6]- Ibid.، P : 50.

[7]- Roland Barthes: ***S/Z***, Ed. Seuil, Coll. Point – Essais, Paris, 1970, P : 11.

نستطيع التأكيد، أن المقاربة النقدية التي اجترحها جون بول سارتر، تعطي القارئ كامل الحرية في تأويل العمل الفني، حيث إنه هو المسؤول عن ماهيته، وكما أن الإنسان يولد ((عدما Néant))، فالعمل الإبداعي كذلك يعد ماهية مجهولة، والقارئ فقط هو الذي يوجه عمله إلى مشروع تحقيق ((وجود Existence))، العمل الفني تأويليا. وتحت ضغط هذا الهدف، نجد أن سارتر قد نحت مفاهيم تساعد على القراءة، ومنها ((الأفق الترحالي))، الذي وجد له مكانا داخل مفاهيم نظرية التلقي في مدرسة كونسطونس الألمانية.

الأفق الترحالي

يستوقفنا هذا المفهوم في النسق النقدي الذي وضعه سارتر، بوصفه بناء لرؤية تحليلية، تنشد إمساك خيط ناظم للمعاني التي يحفل بها العمل الفني، وذلك بإنزاله إلى مستوى يكون فيه موضع أسئلة، يؤطرها هذا الأفق الترحالي L'horizon mouvant، "فحين نقرأ فإننا نتوقع وننتظر ونتأهب، ذلك أننا نتشوق إلى نهاية كل جملة ونستشرف الصفحات القادمة لتأكيد التوقع أو إبطاله، حيث إن القراءة تتكون من حشد لفرضيات متعددة، فمن الحلم نخلص إلى الاستيقاظ، ومن الآمال إلى تحطيمها، فالقراء هم دائما يتقدمون الركب؛ إذ يستبقون الجمل التي يقرأون، ما دام الأمل في المستقبل ممكنا وتتوطد حينئذ جزئيا، فيقدم ويؤخر الصفحات، فيفعِّل إداك دور الأفق الترحالي."[1]

إن قراءة العمل الفني ليست مجرد نظرة أو رؤية للعالم، أو إدراك للأشياء، أو طريقة جديدة في مقاربة الأعمال الإبداعية؛ فهي جدلية تأويل وإنتاج واع لنص نقدي موازٍ للنص الأصلي، وتراكم هذه القراءات يوفر زادا تأويليا مهما يمكن من إفراز أفق توقع تاريخي، ينم عن تجربة تتطور لتحقق ((البهجة الجمالية La joie esthétique)).

البهجة الجمالية

تحتل القراءة موقعا مركزيا في النسق الفكري والنقدي لسارتر، فالكاتب يبحث عن قارئ مفترض يعمل على تحطيم الصمت الذي يسكن الأعمال الفنية، وتندرج هذه القراءة في إطار المعاشرة الحسية للنص. و"إذا أردنا أن نذهب أبعد من ذلك، فإننا يجب أن نعلم بأن الكاتب مثله مثل كل فنان، يهدف إلى منح القراءة نوعا من العاطفة والحنان، والذي نسميه عادة اللذة الجمالية، والذي سأطلق عليه عن طواعية مصطلح ((البهجة الجمالية La joie esthétique))."[2] حيث إن هذا المصطلح، هو أكبر إثبات بأن المسافة الجمالية أو اللذة والمتعة النقدية، لها خلفية نصية في كتابات جون بول سارتر نفسه. وعليه، فإن هذه المفاهيم الفلسفية والنقدية، قد ألهمت كثيرا من رواد نظريات القراءة وأولهم رولان بارث، وأساتذة مدرسة كونسطونس الألمانية، التي استفادت من هذا الإرث الفلسفي والنقدي، لتؤسس لفعل التلقي النقدي التاريخي والجمالي عند ياوس وإيزر.

[1]- Jean Paul Sartre: ***Qu'est-ce que la littérature ?***, Op. Cit., P : 48.

[2]- Ibid.، P: 64.